

المحاضرة الثامنة

قضية التأويل

الأستاذان: - داود امحمد

- زروقي عبد القادر

التأويل: له معان متعددة منها الرجوع، آل إلى الشيء رجع إليه والتأويل بمعنى التحري والتدبر، وبالتالي نقول الرجوع إلى الأمر وتدبره إنما يكون للوقوف على حقيقته، مما يؤدي إلى الوضوح والظهور

وفي الاصطلاح: هو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر.

وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يتحملة إذا كان المحتمل موافقا للكتاب والسنة ومنه قوله تعالى: "يخرج الحي من الميت": يؤول بإخراج المؤمن من الكافر، وإخراج العالم من الجاهل.

وفي الأدب: هو تفسير ما في النصوص من غموض، ويكثر هذا في الشعر.

ولذلك يقترب التأويل من التفسير حتى أن كثيرا من المفسرين وظفوا مصطلح التأويل:

— "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" الطبري

— "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" النسفي

— "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" البيضاوي

— "محاسن التأويل" القاسمي

وهذا لحاجتهم إلى ترجيح أحد المعاني المحتملة، وهو كثير في القرآن وترجع البدايات الأولى للتأويل في النقد والبلاغة إلى الدراسات اللغوية للقرآن الكريم. "كمجاز القرآن" لأبي عبيدة "ومعاني القرآن" للفراء، والدراسات اللغوية للشعر: ككتاب الكامل في اللغة والأدب للمبرد

يقول المبرد في سياق حديثه عن التشبيه: التشبيه جار كثيرا في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعده ثم جاء يشاهد من القرآن وهو قوله تعالى: "طلعها كأنه رؤوس الشياطين" الصافات 65

وقد اعترض معترض من الجهال الملحدون في هذه الآية فقال إنما يمثل الغائب بالحاضر، ورؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها، وهؤلاء في القول كما قال الله عز وجل "بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله" يونس 39

ثم ذكر أن تفسير هذه الآية جاء على ضربين: أحدهما أن هناك شجرا منكر الصورة يقال لثمره رؤوس الشياطين

والقول الآخر: أن الله جل ذكره صنع صورة الشياطين في قلوب العباد فكان ذلك أبلغ من المعاينة، ثم مثل هذه الشجرة مما تنفر منه كل نفس، فكان هذا التصوير أبلغ من المشاهدة ويتحدث المبرد أيضا عن الإيماء إلى الشيء في الشعر وهو يحتاج إلى أولى الأبواب للكشف عنه في قول الفرزدق يهجو جريرا

ضربت عليك العنكبوت نسيجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

يقول: فتأويل هذا أن بيت جرير في العرب كالبيت الواهن، وقضى عليك به الكتاب المنزل يقصد قوله تعالى: "وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت" العنكبوت 41

يقول ابن رشيق معرفا باب الاتساع: "هو أن يقول الشاعر بيتا يتسع في تأويله فيأتي كل واحد بمعنى، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعنى كقول امرئ القيس:

مكرم مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

1- إنما أراد أنه يصلح للكر والفر ويحسن مقبلا ومدبرا ثم قال معا، أي جميع ذلك فيه، وشبهه في سرعته وشدة جريه بجلمود صخر حطه السيل من أعلى الجبل، فإذا انحط من عال كان شديد السرعة فكيف إذا أعانته قوة السيل من ورائه.

2- وذهب قوم إلى أن معنى قوله "كجلمود صخر حطه السيل من عل" إنما هو الصلابة (ليس السرعة) لأن الصخر عندهم كلما كان أظهر للشمس وللريح كان أصلب.

3- وقال بعض من فسرّه من المحدثين إنّما أراد الإفراط فزعم أنّه يرى مقبلاً ومدبراً في حال واحدة عند الكر والفر لشدة السرعة واعترض على نفسه واحتج بما يوجد عياناً فمثله بالجلمود المنحدر من الجبل فإنك ترى ظهره في النصبه على الحال التي ترى فيها بطنه وهو مقبل إليك، ثم يعلق ابن رشيق: ولعل هذا ما مرّقط ببال امرئ القيس ولا خطر في وهمه ولا وقع في خلدّه ولا روعه.

ومثله قول أبي نواس:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر

فزعم من فسرّه أنّه إنّما قال: "وقل لي هي الخمر" ليلتذ السمع بذكرها كما التذت العين برؤيتها والأنف بشمها واليد بلمسها والفم بذوقها، وأبو نواس ما أظنه ذهب هذا المذهب ولا سلك هذا الشعب.

ويقول في باب المجاز: والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالاً محضاً فهو مجاز لاحتتماله وجوه التأويل.

نفهم من هذا أنّ التأويل يقع فيما يتسع معناه والتأويل يكمن في القدرة على استنباط مغزى الشاعر من وراء التجوز ومن الشواهد

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصفير

فجعل الليلة ساهرة على المجاز وإنما يسهر فيها، ثم يستشهد بقوله تعالى "واسأل القرية" وهو من المجاز المرسل.

عبد القاهر الجرجاني: التأويل عند عبد القاهر الجرجاني هو عملية تذوقية للمعنى العميق في النص وسماه بالمعنى الثاني أو معنى المعنى

فالمعنى الأول يفهم بدلالة اللفظ وحده، ومعنى المعنى يحتاج إلى تأويل يستند للتأمل العقلي، يقول "أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر ومدار ذلك على الكناية والاستعارة والتمثيل"

فما يحتاج إلى تأويل قولهم هذه حجة كالشمس في الظهور.

فالشمس تظهر إذ لا يكون دونها حجاب يمنع العين من رؤيتها والشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول، لأنها تمنع القلب من رؤية ما هي شبهة فيه كما يمنع الحجاب رؤية العين.

فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما ادعى من الحكم قيل هذا ظاهر كالشمس فتحصيل الشبهة يحتاج إلى التأويل.

ومن الكناية ما يحتاج إلى التأويل، يقول ابن هرمة:

لا أمتع العود بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل

لم يقصد المعنى الظاهر الذي يدل عليه اللفظ وإلا كان قاسيا على الفصال وعلى أمهاتها التي يذبحها فيحرمها من المتعة بفصلانها ولا يقصد الظاهر من الشرط الثاني وإلا تحول إلى قصاب يشتري ما كبر سننها ورخص سعرها ليذبح ويبيع، وما أراد أن يشتري ما دنا أجله لأنه يذبح في وقته للضيوف وهذا تأويل يحتاج إلى عملية ذهنية طلبت له تأويلا بالنظر اللطيف فعلمت أنه أراد أنه يشتري ما يشتريه للأضياف، فإذا اشترى شاة أو بعيرا كان قد اشترى ما قد دنا أجله لأنه يذبح في وقته للضيوف.

ابن الأثير: يرى أن التفسير خاص باللفظ والتأويل خاص بالمعنى وينقل رأيا مشهورا في ذلك فقوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم"، تفسير الصراط: الطريق، وتأويله الدين المرغوب فيه لاستقامته كاستقامة الطريق، وقوله تعالى: "إن ربك لبالمرصاد" الرصد: المراقبة وتأويله تحذير العباد من تعدي الحدود ومخالفة الأوامر.